الإثارة والنقد الأدبي

بقلم محمد الحبيب عبك

الاثر الفني ينبوع اثارة لاينضب ، وتلك خاصية بارزة تذكر في طليعة ماتتميز به الفنون الجميلة ايا كان نوع الاداه المعبرة عن الاحساس الوجداني بمواطن الجمال. بل الاثارة تعدالمحور الذي تجتمع حوله هاتيك الفنون، والمنطلق الذي تنصرف منه في مجاريها المختلفة ، ومسالكها المتباينة . انها النواة التي تنبع منها ظلال القصيدة ، وانغام المعزوفة وحدود الرسم ، وايقاع التمثال ، واهتزازات الحركة الراقصة المتناسقة . وما هذه الا اسماء لوسائل تنوعت تبعا لتنوع وسائل الادراك الانساني ، وتعددت بتعدد الطرق المعبرة عن الحياة الداخلية التي يحياها الملهم في فترات الانفعال الشعوري المهتزم . ثم لا تلبث ان تزول حدودها المادية بانتهاء عمل الحواس ، فاذا الالفاظ والالوان ، والخطوط والابعاد ، والمسافات والانغام ، جميعها ، اعراض وازياء تتعرى منها الاثارة الفنية حالما تنفذ منطقة الوجدان مجتازة عالم الحس ، فتلتقي جواهرها في المجال الباطني ، وما فيه الا شن لطبق الاخر . وتلك حالها في باطن الفنى حين المخاض وقبله : شعور وجداني عنيف استيقظت له كل القوى ثم تحدر عطاؤها نحو المتنفس الاوفق بنوع الاستعداد ولون الاقتدار ـ على وجه الحصر ، او التفاضل ـ تجسمه المادة المنتخبة .

لئن كانت الاثارة اثرا للعطاء الفني بعد اكتمال خلقه ، وانتظام كيانه ، فانها لم تتخلف ان تكون ـ ايضا وباحرى ـ علة وجوده ، وسرحياته ، وعامل خلوده ، ان الفني الاصيل يجد نفسه مدفوعا نحو اداته بشحنات شعورية متفاعلة عود ثقابها اثارة تستولي على وعيه ، فتقله في شبه غيبوبة الى عالم الرؤى والانطلاق حيث تجد تجربته عناصر البقاء لوجودها الحيوي في وليدها المادي ، وتوفر له وسائل المناعة دون الحد من عنفوانه المتاجج ان صلحت التربة . ومن ثم صح القول بان ملهمات الجمال تتحدى التزام الزمان والمكان ، وموضوعات الفنون اعصى من ان تستنفد ايحاءاتها الزاخرة ، وما ذلك الا لوثيق صلتها بالكهف العميق ـ قلب الانسان ـ الذي اليه مرد حيرة البرية (في حيوان مستحدث من جماد) .

هكذا تبدو الاثارة مصدرا وجوديا ممتد للحياة ، دائب الحركة ، يحافظ على صلاحياته في استنفار المواهب للاستمتاع فالعطاء والابداع ، او الاستمتاع فقط ، لانه لا ضرورة الى ان يكون الاثر الفني ـ دائما ـ مولد اثارة على نسق الاثارة المباشرة للطبيعة او الحياة خلقا وابداعا . فالناس ليسوا على مستوى شعوري واحد لتبلغ الاثارة لدى الجميع حدا متشابه الجنس والنوع ، وقل ذلك حتى مع ذوي المواهب المبدعة ، والاستعدادات الفنية الخالقة ، لان قضية الانتاج اكثر من مؤهلات فهي الى ذلك ترتبط بمقدار الطاقة الايحائية التي يخلقها الاثر ، وقدرة انعكاساته على استفزاز النفوس ، ونوع الشجون التي تحركها الدلالة ـ انشائية او وصفية ، عاطفية او عقلية ، ايجابية او سلبية ـ الى ما هنالك من تاثر بعيد بحالات المزاج الشخصي التي تنعكس بها صورة الكون في مرآة الحاسة المتذوقة .

اما الشيء الذي لايمكن ان تتخلى عنه الاثارة الفنية فهو: ما تستتبعه من احكام قيمية تتفق ونوع الهزة الشعورية التي يحدثها الاثر في الغير كتعبير عن تجاوبه مع الفنان ، او نشوزه عنه .

من هنا تبدا مرحلة النقد انطلاقا من الاثارة ، فالكشف عن مقوماتها الجمالية ، واستمداد عناصرها الفكرية وتعليلها يستنزف معالم الشخصية المنتجة ، ويمتد الى مجاهيل النفس المبهمة ، ويظل ـ النقد ـ يزحف نحو غايته في النمو والارتكاز كلما نضج الفكر ، وازدهرت المعرفة ، وانشحذ الذوق ، فيصيب من التطور ما يقيمه على اسس منهجية واعية تخرجه من حيز الخطرات العابرة ، واللمحات المبهمة ،والاحكام المرتجلة . وتلك سبيله في التماس التعابير الدقيقة، واكتشاف الدلالات الواضحة ، واستمداد القوانين المنضبطة حتى يكون تعريفه بارتسامات الاثر الفني تعريفا بيننا محكما .

والادب واحد من هاتيك الفنون الجميلة ، يقوم وجوده على الاثارة ، ويرتبط مصيره ـ اصالة ـ بمقدار ما تحتفظ به الشرارة العاطفية من حرارة ودفء يعصمان القطعة النثرية او القصيدة الشعرية من الهرم والذبول ، ويحولان بينها وبين الفناء والبلى ، فاذا هي هي وكانها بنت ساعتها على توارث الاجيال ، وتعاقب الزمن ، والا انتهت فعاليتها عند الحد الذي تنتهي عنده قدرتها على مجاراة التطور ، وقضت بان تخلفها عن مواكبة الزمن في ركضه وتوثبه .

وليس للاديب ان يظفر بالخلود المنشود لنتاجه حتى يتغلغل الهامه في طلب النخبة من مستودعات الطبيعة وتتأصل اثارته بانسانيته ليجد القدرة على تنسيق ما اختار بهدي من عبقريته الخلاقة ، والسبيل الى مكنونات الحياة يستنقذها من ضباب الملابسات ، ومتاهات الضلالات ، وقد تسربلت بما اضفاه عليها من معطياته الشخصية فاذا هي في اكمل الحالات روعة وطرافة ، وأدق الدلالات سموا وصدقا ، ثم لا يعيبك ان تستشف من الصورة حقيقة المنتج او على الاقل كما هي في فترة الوحي باعتبار ان ما مصدر عن الاديب ظاهرة لمزاجه الخاص يستحيل ان يشترك معه غيره في نوع اثارته كاستحالة اشتراكه مع غيره فيما يصور شعوره الخاص ، لذلك قال لنجينوس : « الاسلوب هو الرجل » . حتى اذا وقف الناقد ازاء النص الادبي باجهرته ومواعينه ، وسلط عليه اضواءه الكاشفة تراءت له عناصره الحية عن كثب ، وسرت اليه حيواناتها النشيطة بما يشب عن ارادته لتحدد بنفسها الموقف الحاسم في الحكم لها او عليها تبعا للارتسامات التي تتركها في نفسه مختلف قوى الكائن الادبي .

وليس هينا على الناقد ان يكتنه اثارة الاديب ، ويعي ما تضمنته من اثارات وذبذبات قد توغل في الحقائق العلمية ، والنظريات الفلسفية حتى يتدرع بثقافة واسعة، وحساسية مرهفة ، وقدر من الذكاء يستوفي ما تنداح به الاشارة اللفظية من دوائر المعاني المضغوطة والا لم يأمن الزلل في التحليل ، والتعبير ، والتوجيه وسقط

فيما سقط فيه الجهلة او اشباههم من التقريظ الساذج او التجريح السخيف . (ومن مقاييس الجودة ، كما قال الدكتور مندور ـ أن يزداد ما يضيفه القارىء الى ما يقرأ ، ولن يضيف الا اذا ترك له الكاتب ما يضيف .. وقدرة الكاتب على الايحاء تزداد وتضعف بحسب قدرة القارىء الثقافية والعاطفية ، فالقارىء المثقف الحساس هو الذي يستطيع ان يدرك ما يرقد تحت لفظ الكاتب من معنى واحساس) هذا أمر القارىء فكيف بامر الناقد وهو اكثر من ان يكون مجرد قارىء .

ولكن هذه الثقافة العريضة التي نريد الناقد عليها لا تعني اننا نحاول الحيلولة بينه وبين نزوعه الشخصي لانه ما من شيء يستطيع الحد من تدخل ذوق الناقد في انتاجه النقدي ، وعزله عن سماته الفردية بل هو نفسه عاجز عن ذلك مهما استمسك بالدقة ، وادعى التجرد، اذ النقد بقدر جانبه الموضوعي في الاستناد الى المقاييس التي تواضع عليها اهل الذائقة والخبرة ، يستند الى جانب ذاتي لا يقل عن فعالية تلك المقاييس ما دام النقد لا يعدو ان يكون ـ تعبيرا عن حياة المتذوق في تفاعلها مع العمل الفني على هدي مما تواضع على اعتباره اهل المعرفة والوجدان ـ فكان بذلك بين العلم والفن ، وكان كالادب كلاهما اماان يستوحي النفس في جملة ما يستوحي او لا يكون . قال آبر كرمبي (وبديهي انه ليس في العالم شيء يستطيع ان يحد من حرية الناقد في حكمه الذاتي البحت على قيمة اثر من الاثار .. والحكم الذاتي يجب ان يراعي القواعد ... التي اشتقت من طبيعة الفن ، وكانت مطابقة لنظرية الجمال).

اذن تعد الاثارة ركيزة في النقد ايضا ، ولها صح اعتبار الاثر النقدي ادبا وان لم يستمد من الطبيعة او الحياة مباشرة بل من خلال ما يدرس ، واذا هو يعرض ضمن تقديراته : نفسيته كناقد عادل ، وقارىء مستشار الى جانب نفسية من ينتقد على ضوء المشاركة التي اتاحها النص بديناميه الاثارة او فتورها ، ومن ثم كان الاديب المبدع ـ في نظري على الاقل ـ اول ناقد لاثره قبل اي ناقد يتقصى نتاجه بالعلاج والتنقيح ، ويستدرك بالترميم ما يبدو غير متساوق مع : **مستوى الاثارة وروحها** ، وعلى نفس الركيزتين يقيم الناقد بدوره بناءه النقدي في الكشف عن حسنات النص ، وسيئاته ، وتقييمه بالنسبة لما يقارن . ومنهما ـ من مستوى الاثارة ، وروحها ـ يستنطق الاثر عن مبلغ استجابته للحياة ، وتعمقه في الاتصال باسرارها ، والاوضاع التي استكنهت بحقائقها ـ اجتماعية او طبيعية او نفسية او عقلية او انسانية على اختلاف المدارس بين كلاسيكية ورومنطيقية وواقعية والتزامية وفنية ومثالية ورمزية . لان هذه المدارس ما هي الا اتجاهات تحدد وجهة نظر كل في الناحية الجديرة باستمداد الاديب اثارته منها ، او توجيهها اليها طلبا للسمو والابداع ، فالكل معترف ـ صراحة او ضمنا ـ بدور الاثارة كعنصر هام في الادب والنقد ، اليها مرد الفرق بين الكلام في حاليه العلمية والفنية باعتبار ان العلم يدرس الطبيعة والكون والحياة والانسان والمجتمع والنفس والاحداث شان الادب ، فارقهما الجوهري : الاثارة التي تحيل كل هذه المعلومات في الاثر الادبي الى حالة شعورية تنفي عنها الجفاف والتحجر ، وتنفخ فيها الدفق والحياة .

تونس **محمد الحبيب عباس**

نزار قباني

في احدث ما كتب
واحلى ما كتب
واجرأ ما كتب

في ديوانه الجديد

حبيبتي

صدر حديثا

الثمن
٣ ليرات لبنانية
او ما يعادلها

توزيع
دار الاداب
بيروت